قصة قصيرة

عالم في ألف عالم

غالية البدوي اللجار

-١-

مسافران أنا والريح يجمعنا الفضاء وتفرّقنا الجهات. لكننا في نقطة معيّنة من هذا الوجود نجتمع ونقف لحظات تتكوّن فيها الأسطورة.

أندفعُ فيك أيها الشارع: ... تجرّني الخطوات التي لا تنتهي. الأمس كاليوم كالغد، خطوة سريعة، أخرى بطيئة، التفاتة إلى الخلف، نظرة مثبتة إلى الأمام.

إعلان: تعلن الفرقة الوطنية للفنون الشعبية عن مسابقة لاختيار أفضل الأصوات.

أكمل سيره: «سأتقدّم لهذه المسابقة».

حضر وجه المرأةِ الذي أضافه ذات يومٍ.. نظر حوله، كانت ثمّة امرأةٌ تحدّق بوجهه، وسرعان ما أدارت ظهرها ومضت بعيداً عنه، كما حضر وجه ذلك الطفل الذي أدهشه، وأضافه عبور تلك المرأة الحامل لطريق قبالته، فاندفع راكضاً يبكي، بعد لحظاتٍ من الصمت المُحَمّل بالخوف. وفجأةً أدهشه أنه يقف أمام المبنى المُحدّد في الإعلان، ثم استدار عائداً إلى منزلِهِ.

- ٢ -

فتح الباب الذي أصدر صريراً طويلاً ثم صعد الدرج المتآكل إلى غرفته، كانت المرآة المعلّقة في صدر الغرفة طويلة وعريضة. لاحظ أنها تستطيل أكثر ممّا ينبغي في بعض الأحيان. اقترب منها، نظر إلى وجهه، أغمض عينيه ثم فتحهما ليجد وجهاً غير وجهه. ساوره بعض التشاؤم: «حتماً سأخسر غداً في المسابقة».

- ٣ -

اتّكأ إلى النافذة المشرفة على حي قديم حيث البيوت المتلاصقة بصورة بدت عدائيّة أكثر منها حميمية.

«نعم أنتِ عاهر.. أمي أنتِ عاهر/ رأيتكِ بالأمس وفي كل نهار تستقبلين رجلاً.. رجلاً.. وراء رجل».

أدار وجهه تجاه الصوت، ومن دون هذه الالتفاتة كان يعلم أن هذا الصوت آتٍ من بيت الأرملة المجنونة كما كان يسمّيها أهالي الحيّ.

«إنه ابنها الأكبر».

صرخ الشاب: «أنا لست مجنوناً لكنّها بالأمس كانت عارية إلى جانب رجل».

أمي.. أمي.. أبي.. صرخ الطفل.

كان الصوت الآتي من الغرفة المجاورة يجرّه إليها، غير أنها كانت خالية من الأطفال تماماً، فجلس على كرسيّ قريب ثم أغفى.

- ٤ -

ارتفع صوت يناديه بينما كان شابّ آخر يخرج من الباب الواقع في الجهة اليسرى، تكرّر النداء، تنبّه أحمد أنه المقصود.

خطوة... خطوتان... ثلاث... مئة، المكان نفسه. علا صراخ الطفل، تردّدت في أعماقه نداءات كثيرة. نظر حوله. لا وجود للأطفال أيضاً هنا؟! امتدت مرآة أمامه. بدا وجهه في ألف وجه.

استطالت قسمات وجهه، ارتعشت أطرافه، تسارعت أنفاسه.

استطالت المرآة أكثر فأكثر، تحرّكت، اقتربت منه، لامَسَتْهُ، دخلتْ فيه، اندفع إلى الغرفة، استوقَفَتْهُ ثلاثة وجوه كما لو كانت وجهاً واحداً، واقتحمَتْهُ ستُّ عيونٍ. ولشدّة ما أثارته أنوفهم الكبيرة التي بدت وكأنّها سؤالٌ ثقيلٌ حائرٌ بلا جواب، أغمض عينيه للحظات:

- «كأني عرفت هذه الوجوه قبلاً».

قال له أحدهم: «تفضّل اجلس».

- ما اسمك أيها الشاب؟ سأله آخر.

نظر أحمد إلى النافذة أمامه.

- اجلس أيها الصبي والزم الصمت.

- حاضر يا أستاذي.

- لقد سألتك أيها الشاب عن اسمك، ثم لمَ كل هذا الشرود؟

- وأنا قلت لك إن اسمي أحمد.

نظر الرجل إلى الاستمارة الموضوعة أمامه قائلاً: «أنت أحمد أليس كذلك؟»، سارع آخر قائلاً: «أسْمِعْنا صوتك، ابدأ بالغناء فوراً».

لحظاتٍ وسمع الرجل الثالث يقول له بعصبية: «شكراً لك، دع غيرك يدخل».

— ٥ —

ارتفعت أمواج البحر وامتدّت حتى غطّت سطح الماء. نظر إلى السفن وهي تحترق وتموت مثيرةً حولها جبالاً من الضبابِ الأسودِ.

ورأى أحمد ركام حطامها مدفوناً في قلب الحوت أو في أعماق بحرٍ وُجد منذ أزمنةٍ بعيدةٍ وقد غطّته سماءٌ رماديةٌ حمراء.

— ٦ —

النداء... الصراخ... وينتشرُ بكاءُ الطفل في كل مكانٍ، لكنه سمعه هذه المرّة يناديه باسمه، بحث عن الطفل حوله، لا أثر للأطفال هنا، تنبّه أنه قد أصبح في الشارع.

«لا بد من إيجاد عمل وإلاّ...».

داس الأوراق الصفراءَ. امتدّت يده إلى غصن شجرة قريبة فقصفه ثم رماه جانباً.

جلس إلى سور أحد البيوت، اقتربت منه امرأة، ألقت في حضنه شيئاً يلتمع وسارت: «الرحلة ستطول والخطى ستضيع في الطرق المجهولة، والنهاية هي منزلي ذاته»!

— ٧ —

لفّ الظلامُ الحيَّ إلاّ من بعض النوافذ المضاءة التي تحدّتِ الليلَ والصمتَ وباحتْ بما خشيَتْهُ الشمسُ وخافه النهار.

استوقفه صارخٌ آتٍ من أحد هذه البيوت، وهو لرجلٍ خَلّفَ خمسةَ أولادٍ ورحل إلى حيّ آخر، ومنذ ذلك الحين أو قبله أغلق البيت أبوابه في النهار وشرّعه لليل ولألف رجل غريب.

بحث عن المفتاح. تصوّر أنه قد أضاعه في مكانٍ ما، أو أنه قد سقط منه سهواً بينما كان يركب الحافلة... أخيراً وجده معلّقاً بإصبعه.

لمس مفتاح النور الذي كشف عن بيت حافل بالصور الكثيرة المختلفة التي انتشرت هنا وهناك حتى ملأت الجدران كلّها.

كان بعضها قد قُصّ من الصحف والمجلات، وكانت الأخرى من رسومه.

— ٨ —

اقترب من المرآة. حدّق فيها، وللمرّة العشرين رأى وجهاً غير وجهه. حرّك أنفه إلى الأسفل وإلى الأعلى. ابتسم لهذه الحركات. ذهب إلى آلةِ التسجيل، وضع شريطاً، ارتفع صوت الموسيقا حتى ملأ الغرفة، تدافعت الدماء في عروقه. شعر بأن ألف روحٍ تدخل روحه، نهض ثانية إلى المرآة التي غطى الضباب صفحتها. خطوة إلى الأمام.. خطوة إلى الوراء... أخرى إلى اليسار... خطوة إلى اليمين، تسارعت حركاته وخطاه حتى بدا وكأنّ جسده قد تلاشى. طغى صوت الموسيقا على كل شيء حوله.

خطوة إلى الأمام... خطوة إلى الوراء... أخرى إلى اليسار... خطوة إلى اليمين.. ازدادت سرعته.

بدأ إيقاع الطبل الإفريقي يسيطر على المكان كلّه، اقترب منه رجل أسود أمسك بيده ليشاركه الرقص. تسارعت حركتاهما فصارا وكأنهما شعلة من نار وسط الغرفة. وتدافعت مجموعة من الأشباح السوداء مكوِّنةً حولهما حلقةً ضيقة. اتّسعت الشقوق والفجوات في الجدار. تدافعت الرياح فبعثرت الصور والأوراق.

داس بقدميه شيئاً طريّاً. انحنى عليه. حمله بين ذراعيه، علا صراخ الطفل. عاد إلى حلقة الرقص. إلاّ أن صراخ الطفل اشتدّ حتى طغى على جميع الأصوات. تلاشى كل شيءٍ من حوله. سكنت الغرفة. انهار على كرسيٍّ قريب بينما كان الطفل ما يزال بين ذراعيه.

أفزعه من هذا الطفل: عينان واسعتان وعرقٌ غزير يتصبّب من جبينه. نظر في المرآة المقابلة فرأى وجه طفل أسود. هَلَعَ من بروز عظام وجهه وجسده. لاحظ طفلاً آخر يستند إلى كتف الأول، وثالثاً ورابعاً، حتى أصبحوا كلّهم ركام عظام.

في زاوية عالية من زوايا المرآة ثمةَ امرأةٌ بلا رأس ولا أثداء تحاول إرضاع ابنها. ترك المرآة وراح يُقَلِّب صحيفة، أفزعته صور حملت أجساد أطفال مبعثرة ملقاة على الطرقات والأرصفة المُدَمّاة، وصورةُ وجه شاب تحت أقدام مجموعة من جنودٍ عرفهم على الفورِ.

— ٩ —

حيٌّ ضيّق طويل تدافع منه الناس هاربين بعد أن خَلّفوا منازلهم مشرّعة الأبواب، بينما رفضت امرأة ترك منزلها الذي ما لبث أن اقتحمه الجنود، وانهالوا بالهراوات ضرباً على ظهرها فعلا صراخها...: «أحمد اهرب سيقتلونك، اهرب مع عمّتك».

صرخ الطفل بينما كان الدم يتناثر مع الصوت المتلاشي في

ضجيج الهستيريا.

صرخ مرّة، مرّتين، مئة، لا أحد يسمع «أنقذوا أمي، إنهم يقتلونها».

دفعته بيدها المرتجفة..: اهربْ يا أحمد.

انحنى عليها يمسح وجهها الدامي. أحسّ بركلة على ظهره قذفت به إلى الخارج ليجد نفسه هارباً مع الهاربين وهو يصرخ: «أمي وحيدة في الدار تموت»، ثم يمسك ثوب عمّته قائلاً لها: «أشعر بألم ووجع في ظهري يا عمّتي».

كان عارياً يقترب من الرجال يطلب بنطالاً، غير أنهم سرعان ما كانوا يديرون ظهورهم له ويكملون سيرهم تجاه الفراغ.

لم يدرِ كم مَرّ من الزمان حتى وصل وعمّته إلى مشارف نهرٍ تعوّد الجلوس إليه وحيداً مفكّراً بأبيه وهو يفتح الباب في منتصف الليل مستقبلاً رجالاً غرباء يعطيهم بعض الأوراق، وأحياناً كانوا يتهامسون بكلام لم يستطع التقاطه، ومفكّراً أيضاً بيد ذلك الشاب حين امتدّت وانهالت طعناً في ظهر أبيه مترافقة مع زغاريد النساء الفرِحة، ثم سمع إحداهن تقول للشاب: سلمت يداك.

واختفى الشاب عن الحارة ولم يَعُدْ يراه بعد ذلك أبداً.

قالوا في اليوم التالي: مرض في جسدنا انتهى.

لكن أمّه لم تقل شيئاً.

عاد أحمد إلى المرآة ليجد أن وجه الطفل الأسود قد كبر حتى كاد يملأ المرآة التي أصبحت حمراء قانية تتخلّلها أيدٍ حجرية.

صرخ أحمد: «ما معنى أن نحب أو نكره؟ ماذا تعني هذه الكلمات: حب، كراهية، حياة؟..»

- ١٠ -

أبعدتْه عنها تاركةً الفراش، اقتربت من المرآة ناظرةً إلى جسدها العاري. وضع يده على كتفها محاولاً إعادتها إلى صدره، رفعت يده عنها قائلةً: ستكبر يوماً وتصبح رجلاً، أليس كذلك يا عزيزي؟

ارتدت ملابسها ثم ودّعته بقبلة في الهواء ومضت. ناداها: ستعودين، أليس كذلك يا عزيزتي؟

- عندما تكبر، كما اتّفقنا يا أحمد.

- ١١ -

طرق الباب. أطلّت إحداهنّ، دخل ساحة الدار، أشارت له أن يذهب إلى الغرفة المجاورة. اقتربت منه شابة صغيرة طوّقها بذراعيه. بعد ساعة أو أكثر استيقظ فزعاً. ارتدى ملابسه، استطالت يداه، مزّقت الستائر، أعاد النظر إلى جسده فوجده عارياً مرّة أخرى.

ركض إلى الشارع لاهثاً، اشتدت الريح، اقتلعت الأشجار، تفتّتت الجذور، تجمّعت الغيوم السوداء على صفحة السماء ثم تحرّكت وبدأت بالهبوط إلى الأرض فتلاشت الأجساد.

- ١٢ -

توقف أمام واجهةِ أحجد المطاعم الشعبية... فول، فلافل، حمّص... اختلطت روائح هذه الأطعمة. استنشقها مرّةً واحدةً، شعر بغثيان، فأراد تركه وعدم دخوله. ثم غيّر رأيه ودخل المطعم. جلس إلى إحدى الطاولات. سأله صبيّ المطعم عن طلبه. حرّك شفتيه: فنجان شاي.

حدّق الصبيّ فيه مستغرباً ثم قال: لم أسمعك سيّدي، ماذا طلبت؟

- قلت لك فنجان شاي. كان قد حرّك شفتيه مرّة أخرى.

هزّ الصبي كتفه ومضى إلى طاولة أخرى جلس إليها شاب في العشرين من عمره لم يكن يرفع ناظريه عن أحمد.

قُدِّمت طلبات وطلبات ولم يأتِ الصبي بفنجاي الشاي، ناداه مرّات عديدة دون جدوى، أخيراً أشار إليه أن يأتي، اقترب الصبي، فسارعه أحمد بالسؤال: أين فنجان الشاي؟

صمت الصبي ثم قال له: ألم أقل لك أن تذهب إلى تلك الطاولة فاسحاً المكان لغيرك؟ وكان يشير إلى طاولة صغيرة مجاورة للباب.

دفعَ أحمدُ الصبيَّ بيده ثم ترك المطعم، ولدى وصوله إلى الباب استوقفه رجل مسنٌّ متسائلاً: الست أحمد... ابن... من قريتنا؟..

دُهش أحمد، كان يرى الرجل لأول مرّة، حرّك شفتيه:

- ولكن مَنْ أنت؟

وتابع الرجل: إني أفهمك يا بني.

- ماذا تفهم؟ كان قد حرّك شفتيه من جديد.

- لقد انتزع أبوك حنجرتك مذ كنت صغيراً.

- حنجرتي ما زالت في مكانها.

انفجر صراخ أحمد كما لو كان صوت كورس من ألف حنجرة مبحوحة. كان الناس قد تجمّعوا حول الفتى الصارخ الذي راحت صرخاته تتلاشى مع سقوطه المتسارع إلى الأرض حيث صمت نهائيّاً. فانفضّ الناس عن الجثة المكوّمة على الرصيف.